معالم القرآن والسنة
مجلة محكمة
السنة السابعة، العدد الثامن، ٢٠١٢

نشوان عبد خالد قائد المخلافي

الاتجاه النقدي في التفسير
تفسير ابن عاشور نموذجاً

Abstract

This paper deals with the criticism approach of Quranic interpretation in general, in order to give the reader a general view of the most significant criticism aspect addressed by the commentators in their tafsir. The researcher aims at giving a brief overview of the deductive criticism approach in interpretation. If Ijtihad and deduction terms are present, and conditions of the interpreter are applicable , then there is ample space to explain the verses of the Quran within the prescribed guidelines, though it is important not to trespass the overall purpose of the Quran in order to widen the range of its semantic and employing its purposes to fit in with the reality of the society. The researcher has followed the inductive approach to collect the texts, statements and evidences as well as the analytical approach in studying these texts to highlight the aspect of criticism made by some commentators of other commentators through the case of Ibn Ashur and his methodology in his tafsir work.

مقدمة

الحمد الله رب العالمين، مالك الملك الكبير المتعال، منزل الفرقان هادياً الثقلين إلى أقوم نهج وأكرم منال، وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد الأحد المتفرد بالعظمة

والجلال، وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم خير من فسر التنزيل ورفع الإشكال، وعلى آله وصحابته وسلم تسليماً كثيراً ما تعاقبت الأيام والليال، أما بعد:

فإن التفسير من أجل العلوم وأشرفها لتعلقه بكتاب الله تعالى، وصلته الوثيقة به، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهو: أجل العلوم الشرعية، وأشرف صناعة يتعاطاها الإنسان"،[١] ولذلك كان التنافس بين السابقين قائماً، ولا يزال بين المتأخرين جارياً في التصنيف في التفسير، والتأليف فيه، فالقرآن لا تنقضي عجائبه، وهو كتاب مستوعب للمتغيرات والمستجدات في كل زمان ومكان، ولقد اهتم المفسرون عبر مراحل تاريخ هذه الأمة بوضع القواعد المنهجية التي ترسموها في تفاسيرهم، وكشف الباحثون القناع على معظم أسس تلك المناهج والطرق، وأبانوها بالدراسات والتحقيقات.

ولقد تمحورت الحركة العلمية التفسيرية بمراحل أربعة[٢] وهي: مرحلة التأسيس لعلم التفسير[٣]، ومرحلة التأصيل[٤]، ومرحلة التفريع[٥]، وأخيراً مرحلة التجديد[٦]، ولكل مرحلة من المراحل السابقة مميزاتها ومنهجيتها وخصائصها.

١- ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد عبد الحليم، **مقدمة التفسير**، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، (السعودية: الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) ص١٤٣.

٢- انظر: الخالدي، صلاح عبدالفتاح، **تعريف الدارسين بمناهج المفسرين**، (دمشق: دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤٢٩-٢٠٠٨م) ص٣٥.

٣- وهي المرحلة التي نشأ فيها التفسير، وتأسس، وكان بدايتها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، واستمرت على مدار القرون الثلاثة الأولى، التي شهد لها النبي صلى الله عليه وسلم بالخير والفضل.

٤- وهي مرحلة التقعيد لعلم التفسير، وكانت في نهاية القرن الثالث، وإمام هذه المرحلة إمام المفسرين وحجتهم: محمد ابن جرير الطبري.

٥- وفي هذه المرحلة انتقل التفسير من التأصيل إلى التفريع وفقاً للقضايا والأحداث، ووفقاً لما برع فيها المفسر من العلوم، وظهرت في هذه المرحلة عدة اتجاهات للتفسير منها: التفسير بالمأثور، والتفسير البياني، والفقهي، والعقلي، وغيره.

٦- وهي مرحلة اتسمت بالتجديد الصحيح السليم، القائم على الإبداع والحسن، والاستفادة من العلوم المعاصرة، والتوسع في أبعاد الدلالات القرآنية، وإنزالها على الواقع بما يتناسب مع الزمن ويحل المشكلات، وقد بدأت هذه المرحلة في القرن الرابع عشر الهجري، إلى وقتنا الحاضر.

إلا أن الاتجاه النقدي كان محدوداً ومبثوثاً متفرقاً في بطون المؤلفات والمصنفات الحافلة بما لذ وطاب من المباحث والتأويلات، فالباحث المتتبع لشتى التصنيفات والمؤلفات يقف على أسس وكيفية النقد الذي انتهجه أئمة التفسير تجاه بعضهم بعضاً، فقد انتقد المفسرون بعضهم البعض بتوجهاتهم المختلفة، وانتماءاتهم المذهبية ، بموضوعية أحياناً وفي بعض الأحايين تأثرت آراءهم التفسيرية، ببعض تلك التوجهات، فلكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة.

ويأتي هذا البحث في إطار التوجه الموضوعي لتلمس الاتجاه النقدي في التفسير، وذلك بتحليل واستنباط الجوانب النقدية لبعض الآراء التفسيرية التي حكمت الاتجاهات المختلفة في التفسير، عبر استخراج تلك الآراء من مناهج المفسرين، أو من أقوالهم التفسيرية التي أبانوها في تناولهم للآيات، في مؤلفاتهم ومصنفاتهم في هذا المجال، إسهاماً في كشف اللثام عن التجديد الدائم والاجتهاد المتجدد الذي حفظ للأمة مرجعيتها وكيانها لأزمان طويلة، فكان ذلك النقد والاجتهاد في هذا المجال هو الروح التي أمدت الأمة بالحياة والحيوية والفاعلية، وعندما تراجعت هذه الحركة النقدية، وعكف الناس على ما قاله الآخرون تعطلت العقول وجمدت وركنت إلى الفضول من الاهتمامات فتخلف بها الركب وسبقها أعداؤها في كل ميادين الحياة، فغاب التجديد وظهر التبديد، وأفل نجم التطوير وحل بها ليل التدمير.

وتبرز إشكالية البحث في وجود انطباع في أذهان الكثير من الناس بأن الاتجاه التفسيري خال من الدراسات النقدية، وأنه لا يوجد إبداع أو تطور في المناهج التفسيرية، إلا أن هذه الفئة من الناس وهم ممن كانت ثقافتهم منحصرة في تخصصاتهم غير الإسلامية لم تقف كثيراً عند الدراسات في علم التفسير، لاسيما تلك الدراسات النقدية، ولم تتحقق من أن المفسرين كغيرهم نقدوا بعضهم بعضاً، وحاول رواد كل اتجاه أن يثبت حجته و دحض حجة الآخر، وإظهار توجهه التفسيري، ونظراً لظهور هذه الإشكالية خاصة في أوساط الفئة المثقفة من الناس رأى الباحث أن يدلي بدلوه في دراسة هذا النوع من التوجه لدى المفسرين، في محاولة لتوضيح الاتجاه النقدي لدى المفسرين مبيناً دلالاته وأبعاده.

ومن ناحية أخرى فقد كان للنظرة السائدة في تعظيم شأن القرآن، والتي أخذت مجرى آخر أثر في ذلك التوجه النقدي لدى المفسرين، فقد اقتصرت نظرة بعضهم على ظاهر النصوص، مع إغفال المعاني والمقاصد، بينما تركزت النظرة الأخرى حول نقل الأقوال السابقة دون التجديد، فمن المعلوم أن النقد هو في الأقوال التفسيرية التي هي من اجتهادات البشر، ولا يكون النقد في القرآن الكريم المعجز بلفظه ومعناه، والمنزه عن العيب والنقائص، والنقد لدى العلماء هو اجتهاد، وعلم التفسير ميدان فسيح للاجتهاد إذا توافرت الدواعي، وتحققت الشروط المطلوبة في المفسر، وإن تقييد النص القرآني بمعانيه الظاهرة، وبدلالة لغوية واحدة فقط فيه من الحيف وتقييد العقل ما لا يرضاه منهج القرآن ودعوته نحو التأمل والتدبر.

المبحث الأول: التعريف بأهم المفاهيم والمصطلحات (الاتجاه والنقد والتفسير)

يتناول هذا المبحث الحديث حول التعريف بأهم المفاهيم والمصطلحات المستخدمة، والتي توضح لنا الركائز الأساسية التي يشتمل عليها البحث، وتعطينا صورة عن أهم القوالب التي يتركب منها، ومحدداته الأساسية.

أولاً: تعريف الاتجاه لغة واصطلاحاً

يقصد من الاتجاه في اللغة المسار، والنحو الذي يحدد الوجه التي يترتب عليها أي عمل ما، جاء في لسان العرب: "والجهة النحو تقول كذا على جهة كذا وتقول رجل أحمر من جهته الحمرة وأسود من جهته السواد والوجهة والوجهة القبلة وشبهها في كل وجهة أي في كل وجه استقبلته وأخذت فيه وتجهت إليك أتجه أي توجهت".[٧]

٧- منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر –الطبعة الأولى) ج١٣، ص٥٥٥.

ويقول ابن فارس: "والوجهة: كل موضع استقبلته، قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]. ووجهت الشيء: جعلته على جهة، وأصل جهته وجهته"[٨]، وبناء على ما سبق من المعاني اللغوية فإن المقصود بالاتجاه هنا: الوجهة التفسيرية التي يقصدها المفسر من خلال تفسيره.

تعريف الاتجاه التفسيري في الاصطلاح:

عرَّفه الدكتور محمد إبراهيم شريف بقوله: "ومفهوم الاتجاه يتحدد أساساً بمجموعة من الآراء والأفكار والنظرات والمباحث التي تشيع في عمل فكري ما ـ كالتفسير ـ بصورة أوضح من غيرها، وتكون غالبة على ما سواها، ويحكمها إطار نظري أو فكرة كلية تعكس بصدق مصدر الثقافة التي تأثر بها صاحب التفسير ولونت تفسيره بلونها".[٩]

ثانياً: تعريف النقد لغة واصطلاحاً.

جاء في لسان العرب: "النقد خلاف النسيئة والنقد والتنقاد تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها، ويقال: وناقدت فلانا إذا ناقشته في الأمر"،[١٠] وجاء في مختار الصحاح: "نَقَدَهُ الدراهم و نَقَدَ له الدراهم أي أعطاه إياها فانْتَقَدَها أي قبضها و نَقَدَ الدراهم و انْتَقَدَها أخرج منها الزيف وبابهما نصر ودرهم نَقْدٌ أي وازن جيد و نَاقَدَهُ ناقشه في الأمر"،[١١] فالنقد يأتي بمعنى التمييز، والنقاش، وتجلية الأمر.

٨- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر، الطبعة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) ج٦، ص٨٩.

٩- شريف، محمد إبراهيم، **اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم**، (القاهرة: دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م) ص٦٠.

١٠- ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج٣، ص٤٢٥.

١١- الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر، **مختار الصحاح**، تحقيق: محمود خاطر، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، د.ط، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ص٦٨٨.

تعريف النقد في الاصطلاح: لا يوجد اتفاق بين المختصين في مجال التفكير الناقد حول تعريفه، إذ يوجد العديد من التعريفات المتعددة والمتباينة، في هذا الصدد نذكر من أهمها:

هو عمليه تفكيرية مركبة عقلانية أو منطقية يتم فيها إخضاع فكرة[١٢] أو أكثر للتحقيق والتقصي وجمع وإقامة الأدلة والشواهد بموضوعية وتجرد من صحتها ومن ثم إصدار حكم بقبولها من عدمه اعتمادا على معايير أوقيم معينة".[١٣]

ويعبر جون ديوي عن التفكير الناقد في كتابه "كيف تفكر؟" بقوله: هو التمهل في إعطاء الأحكام، وتعليقها لحين التحقق من الأمر.

ويعرف كذلك بأنه: التفكير الناقد هو فحص وتقييم الحلول المعروضة،

والتفكير الناقد: هو حل المشكلات أو التحقق من الشئ وتقييمه بالاستناد إلى معايير متفق عليها، ومما سبق نستطيع القول بأن التفكير الناقد أو الاتجاه الناقد هو قدرة الفرد على إبداء الرأي المعارض أو المؤيد في المواقف المختلفة، مع إبداء الأسباب المقنعة لكل رأي.

ثالثاً: تعريف التفسير لغة واصطلاحاً.

التفسير مصدر على وزن تفعيل، وفعله الماضي رباعي مضعف: فسَّر، تقول: فَسَّرَ، يُفَسِّرُ، تفسيراً، جاء في لسان العرب لفظ "فَسَّر": "الفَسر البيان فسَّر الشيء يفسِّره بالكسر وتفسره بالضم فسراً، وفسَّره أبانه. وقوله عز وجل: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]. الفَسر كشف المغطى والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل".[١٤]

١٢- قد تكون هذه الفكرة :حقائق أو اعتقاد ، أو حجة أو قضية أو خبر أو رواية.

١٣- جروان، حسن، **تعليم التفكير**، ص٤٥.

١٤- ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج٥، ص٥٥.

وقال ابن فارس: "الفَسر: كلمة تدل على بيان شئ وإيضاحه. تقول: فسرت الشئ وفسرته".[١٥]

وقال الراغب الأصفهاني: "فسَّر الفسر إظهار المعنى المعقول، والتفسير في المبالغة كالفسر"،[١٦] ومما سبق من المعاني اللغوية يتضح لنا أنَّ من معني التفسير: البيان، والكشف، والإظهار، والتوضيح.

التفسير في الاصطلاح: تعددت التعريفات الاصطلاحية للتفسير، وسيقتصر الباحث هنا على ذكر ثلاثة من التعريفات المشهورة مع الترجيح لأحدها.

قال الإمام الزركشي في تعريف علم التفسير: "التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المترل على نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب الترول والناسخ والمنسوخ".[١٧]

وقال الشيخ الزرقاني في تعريف التفسير: "علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية".[١٨]

وعرفه الإمام محمد الطاهر بن عاشور بقوله: "التفسير: اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها، باختصارٍ أو توسُّع".[١٩] ولعل هذا التعريف

١٥- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر، الطبعة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) مادةفسر، ج٤، ص ٥٠٤.

١٦- الأصفهاني، الراغب، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، (لبنان: دار المعرفة) ص٣٨٠.

١٧- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: دار المعرفة، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م) ج١، ص١٣.

١٨- الزرقاني، محمد عبد العظيم، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة) ج٢، ص٣.

الأخير هو الأنسب، ولعل التعريف الأنسب للتفسير هو: ذلك العلم الذي يتم من خلاله فهم مراد الله تعالى من القرآن، وبيان معانيه، وما يستفاد منها، والكشف عن الأحكام الواردة، ورفع الغموض عن الآيات، ويمكننا تلخيص التعريف للاتجاه النقدي في التفسير بما يأتي: هو مجموعة الآراء أو الأفكار أو الاختيارات التي يذهب إليها أصحاب اتجاه تفسيري معين، بناء على أسس معينة وقواعد تحكم توجههم التفسيري، يعارضون أو يتفقون مع غيرهم، مع محاولة إبداء الأسباب المقنعة لذلك.

المبحث الثاني: الاتجاه النقدي في التفسير (المأثور، الرأي، التفسير العلمي).

يتناول هذا المبحث الحديث حول الاتجاه النقدي في التفسير من خلال ثلاثة من أنواع التفسير وهي: التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي، والتفسير العلمي، ويشمل ذلك التعريف بتلك الأنواع وإبراز جوانب النقد فيها، وكيف نظر رواد كل اتجاه للآخرين في الاتجاهات المختلفة مع توضيح شيء من المنهجية التي اعتمد عليها هؤلاء في بيان توجههم النقدي، وآرائهم النقدية.

أولاً: الاتجاه النقدي في التفسير بالمأثور.

لم يكن التفسير بشكل عام في بدايات مرحلة التدوين قد أخذ شكلاً مستقلاً له قواعده وأساسياته، وإنما كُتِبَ فيه كبابٍ من أبواب الحديث، وصنف فيه المصنفون على ذلك الأساس، يجمعون في ذلك ما روي عن النَّبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة وعن التابعين ما ورد من أقوالٍ تفسيرية لبعض الآيات، وكان أرباب الشأن في ذلك هم المـــحَدِّثين، ثم انفصل التفسير عن الحديث وصار علماً مستقلاً، فكان أول ما نقل في التفسير مستقلاً الصَّحيفة التي نقلها علي بن أبي طلحة عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، ثم وجُد من ذلك جزء أو أجزاء دُوِّنت في التفسير خاصة، مثل ذلك الجزء

١٩- ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م) ج١، ص١١.

المنسوب لأبي رَوق، وتلك الأجزاء الثلاثة التي يرويها محمد بن ثور عن ابن جريج،[٢٠] ثم وجدت تفاسير كاملة جمعت كل ما وقع عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة وعن التابعين، ومن ذلك تفسير الإمام ابن جرير الطبري الذي يعتبر جهبذ المفسرين، وإمام التفسير.

ويعرف الأستاذ محمد حسين الذهبي التفسير بالمأثور بأنَّه: "يشمل التفسير المأثور ما جاء فى القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نُقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وما نُقِل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما نُقِل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم"،[٢١] فما كان سبيله النقل فهو من التفسير بالمأثور.

أبرز جوانب النقد في التفسير بالمأثور: إن أبرز الجوانب التي سلكها رواد مدرسة التفسير بالمأثور تتخلص في الترجيح بين الروايات ورد الأقوال الضعيفة، وبيان أوجه القراءات، والترجيح في الأوجه اللغوية، والإنكار على التفسير بمجرد الرأي، وفيما يأتي بيانها:

الإنكار على التفسير بمجرد الرأي:

لقد سلك رواد الاتجاه النقلي في التفسير مسلك الناقد لأصحاب الرأي المستقلين في التفكير، فمثلاً نجد الإمام ابن جرير الطبري يخاصم بقوة أصحاب ذلك الاتجاه، وينقدهم نقداً قوياً، ولا يزال يشدد في ضرورة الرجوع إلى العلم الراجع إلى الصحابة أو التابعين والمنقول عنهم نقلاً صحيحاً مستفيضاً، ويرى أن ذلك وحده علامة التفسير الصحيح،[٢٢] فعلى سبيل المثال عندما تكلم عن قوله تعالى: فمثلاً عندما تكلَّم

٢٠- انظر: الذهبي، محمد حسين، **التفسير والمفسرون**، (القاهرة: مكتبة وهبة، الطبعة السابعة، ٢٠٠٠م) ج١، ص١١٢.

٢١- الذهبي، **التفسير والمفسرون**، مرجع سابق، ج١، ص١١٢.

٢٢- الذهبي، **التفسير والمفسرون**، مرجع سابق، ج٢، ص١٨٤.

عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذالِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٩] نجده يذكر ما ورد في تفسيرها عن السَلَف مع توجيهه للأقوال وتعرّضه للقراءات بقدر ما يحتاج إليه تفسير الآية، ثم يعرج بعد ذلك على مَنْ يفسِّر القرآن برأيه، وبدون اعتماد منه على شيء إلا على مجرد اللغة، فيفند قوله، ويبطل رأيه، فيقول ما نصه[٢٣] : "... وكان بعض مَن لا علم له بأقوال السَلَف من أهل التأويل، ممن يُفسِّر القرآن برأيه على مذهب كلام العرب، يوجه معنى قوله: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ .. إلى: وفيه ينجون من الجدب والقحط بالغيث، ويزعم أنه مِنَ العصر، والعصر التي بمعنى المنجاة...وذلك تأويل يكفى من الشهادة على خطئه خلافه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين".[٢٤]

وكثيراً ما يقف ابن جرير مثل هذا الموقف حيال ما يروى عن مجاهد أو الضحاك أو غيرهما ممن يرون عن ابن عباس، فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْاْ مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:٦٥] .. يقول ما نصه: "حدَّثني المثنى، قال: حدَّثنا أبو حذيفة، قال: حدَّثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْاْ مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: "مُسِخَتَ قلوبهم ولم يَمْسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم، كمثل الحمار يحمل أسفاراً"، ثم يعقب ابن جرير بعد ذلك على قول مجاهد فيقول ما نصه: "وهذا القول الذي قاله مجاهد، قول لظاهر ما دلَّ عليه كتاب الله مخالف".[٢٥]

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَائِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩] .. نجده يروى عن الضحاك في معنى هذه الآية: أنَ مَنْ طلَّق لغير العِدَّة فقد اعتدى وظلم نفسه، ومَنْ يتعدَّ حدود الله فأولئك

٢٣- المرجع السابق، ج٢، ص١٨٤.

٢٤- الطبري، ابن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م) ج١٦، ص١٣١-١٣٢.

٢٥- المرجع السابق، ج٢، ص١٧٣.

هم الظالمون. ثم يقول: "وهذا الذي ذُكر عن الضحاك لا معنى له في هذا الموضع، لأنه لم يجر للطلاق في العِدَّة ذكر فيقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، وإنما جرى ذكر العدد الذي يكون للمطلِّق فيه الرجعة والذي لا يكون له فيه الرجعة، دون ذكر البيان عن الطلاق للعِدَّة".[٢٦] فهو ينكر على التفسير بمجرد الرأي، وينقد تلك الأقوال التي لا تعتمد على مستند.

الترجيح بين الروايات:

ثم نجد مسلكاً آخر للنقد وهو الترجيح بين الروايات المختلفة، ويظهر هذا في تفسير ابن جرير في مواضع متعددة منها: قوله: "قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿فمَا استَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ [النساء:٢٤]. فقال بعضهم: معناه: فما نكحتم منهن فجامعتموهن يعني: من النساء ﴿ فآتُوهُنَّ أُجُورَهنَّ فَرِيضَةً﴾ يعني: صدقاتهن، فريضة معلومة. وقال آخرون: بل معنى ذلك: فما تمتَّعتم به منهن بأجرٍ تمتُّعَ اللذة، لا بنكاح مطلق على وجه النكاح الذي يكون بولِيٍّ وشهود ومهر،[٢٧] قال أبو جعفر: وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويل من تأوَّله: فما نكحتموه منهن فجامعتموه، فآتوهن أجورهن لقيام الحجة بتحريم الله متعة النساء على غير وجه النكاح الصحيح أو الملك الصحيح على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد دللنا على أن المتعة على غير النكاح الصحيح حرام وأما ما روي عن أبيّ بن كعب وابن عباس من قراءتهما:(فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمًّى)، فقراءة بخلاف ما جاءت به مصاحف

٢٦- المرجع السابق، ج٤، ص٥٨٥.

٢٧- الطبري، ابن جرير، **جامع البيان في تأويل آي القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م)ج٨، ص ١٧٥-١٧٨.

المسلمين،[٢٨] وغير جائز لأحد أن يلحق في كتاب الله تعالى شيئًا لم يأت به الخبرُ القاطعُ العذرَ عمن لا يجوز خلافه.[٢٩]

... وهكذا نجد ابن جرير فى غير موضع من تفسيره، ينبري للرد على مثل هذه الآراء التي لا تستند على شيء إلا على مجرد الرأي أو محض اللغة،[٣٠] وهذا منهج سلكه ابن جرير في الترجيح، وهو منهج نقدي، يعزز من الرؤية الفاحصة عنده للتمحيص بين الأقوال.

وفي تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية مثالاً آخر للترجيح بين الروايات، يقول الذهبي في التفسير والمفسرون: "وأنا في أثناء قراءتي في هذا التفسير، رأيت ابن عطية عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] .. يقول ما نصه: "قالت فرقة هي الجمهور: الحُسنى: الجنة. والزيادة: النظر إلى الله عزَّ وجَلَّ، ورُوى في ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، رواه صهيب، ورُوى هذا القول عن أبي بكر الصِدِّيق، وحُذيفة، وأبي موسى الأشعري.." ثم يقول: "وقالت فرقة: الحُسنى هي الحسنة، والزيادة هي تضعيف الحسنات إلى سبعمائة، فروتها حسب ما روى في نص الحديث وتفسير قوله تعالى: ﴿يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ ..، وهذا قول يعضده النظر، ولولا عظم القائلين بالقول الأول لترجح هذا القول".. ثم يأخذ فى ذكر طرق الترجيح للقول الثاني".[٣١] وهذا نظرة نقدية للأقوال مصحوبة بأسباب الترجيح.

وفي تفسير الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي نجد جوانب أخرى من النقد حيث ينقد الفرق التي ألفت في التفسير ويوضح مناهجهم في التفسير فيقول: "ظهر لي أن المصنفين فى تفسير القرآن فِرَق على طُرقٍ مختلفة: فِرقة أهل البدع والأهواء، وعَدَّ

٢٨- يقصد من ذلك أنها قراءة تفسيرية، وليست قراءة متواترة.

٢٩- المرجع السابق، ج٨، ص١٧٩.

٣٠- الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج٢، ص١٨٥.

٣١- الذهبي، **التفسير والمفسرون**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٠٩.

منهم الجبائي والرمّاني، وفِرقة مَن ألّفوا فأحسنوا، إلا أنهم خلطوا أباطيل المبتدعين بأقاويل السَلَف الصالحين، وعَدَّ منهم أبا بكر القفّال، وفِرقة اقتصر أصحابها على الرواية والنقل دون الدارية والنقد، وعَدَّ منهم أبا يعقوب إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، وفِرقة حذفت الإسناد الذي هو الركن والعماد، ونقلت من الصحف والدفاتر، وحرَّرت على هوى الخواطر، وذكرت الغثّ والسمين، والواهي والمتين، قال: وليسوا في عداد العلماء، فصنتُ الكتاب عن ذكرهم، وفِرقة حازوا قصب السبق، في جودة التصنيف والحذق. غير أنهم طوَّلوا في كتبهم بالمعادات، وكثرة الطُرُق والروايات، وعَدَّ منهم ابن جرير الطبري، وفِرقة جرَّدت التفسير دون الأحكام، وبيان الحلال والحرام، والحل عن الغوامض والمشكلات، والرد على أهل الزيغ والشبهات، كمشايخ السَلَف الماضين، مثل مجاهد والسدي والكلبي".[٣٢] فهذه الرؤية التفصيلية للفرق تنبأ عن نقدٍ ظاهر للفرق نحو تعاملهم مع التفسير.

وفي تفسير البغوي، نجد أن الإمام البغوي يتحاشى ذكر الروايات المنكرة في التفسير، وما لا يمت بصلة إلى التفسير من علوم، وقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه فقال: "وما ذكرتُ من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثناء الكتاب على وفاق آية أو بيان حكم فإن الكتاب يُطلَب بيانه من السُنَّة. وعليها مدار الشرع وأُمور الدين – فهي من الكتب المسموعة للحُفَّاظ وأئمة الحديث، وأعرضتُ عن ذكر المناكير وما لا يليق بحال التفسير"،[٣٣] وهو بهذه النظرة يعزز من مبدأ النقد في المنهج الذي اتبعه.

وهكذا نجد أن الاتجاه النقدي في التفسير بالمأثور يتلخص في الرد على المخالف، والإنكار على الأنواع التفسيرية الأخرى كالتفسير بالرأي، والترجيح بين

٣٢- الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج٢، ١٩٩.

٣٣- المرجع السابق، ج٢، ص٢٠٥.

الأقوال التفسيرية، وأوجه القراءات،[٣٤] والاختلاف في الأوجه اللغوية، وغير ذلك من الأمور التي تعتبر محل نقد وتقييم من قبل المفسرين بالمأثور لغيرهم.

ثانياً: الاتجاه النقدي في التفسير بالرأي

التفسير بالرأي يقابل التفسير بالمأثور، ويسمى بالتفسير العقلي؛ لأنه قائم على إعمال العقل والتفكير في التفسير في مقابل التفسير بالمأثور الذي يقوم على نقل الروايات المأثورة في التفسير، ويسمى كذلك بالتفسير النظري؛ لأنه قائم على النظر والتأمل الموصل إلى الأحكام والدلالات ويقابله التفسير بالمأثور القائم على الأثر والنقل، وهو نوعان: تفسير بالرأي المحمود، والآخر تفسير بالرأي المذموم.

يقول الذهبي في تعريف هذا النوع من التفسير: "فالتفسير بالرأي، عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسِّر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالاتها، واستعانته في ذلك بالشعر الجاهلي ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسِّر".[٣٥]

ويعرفه مناع القطان بقوله: "التفسير بالرأي: هو ما يعتمد فيه المفسر في بيان المعنى على فهمه الخاص واستنباطه بالرأي المجرد -وليس منه الفهم الذي يتفق مع روح الشريعة، ويستند إلى نصوصها- فالرأي المجرد الذي لا شاهد له مدعاة للشطط في كتاب الله".[٣٦]

٣٤- ونجد ذلك في تفسير ابن جرير الطبري، في أكثر من موضع ومن المعلوم أن القراءات المتواترة لا يجوز الترجيح بينها كونها مصدرها التوقيف، واعتبارها متواترة يقتضي عدم الترجيح بين بعضها البعض.

٣٥- الذهبي، **التفسير والمفسرون**، مرجع سابق، ج١، ص١٨٣.

٣٦- القطان، مناع، **مباحث في علوم القرآن**، (مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م) ص٣٦٢.

فالتفسير بالرأي يقوم على أساس إعمال المفسر لعقله، واستنباطه للقول التفسيري، واجتهاده، وعمق نظره، وسداد رأيه، وتقديم الجديد من الدلالات والأحكام والاستنباطات وفق الضوابط والتوجيهات التي لا تخرج تفسيره عن دائرة الرأي المحمود إلى دائرة الرأي المذموم.

وقد اختلف فيه العلماء، فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه، ولقد تحدث العلماء عن هذا الاختلاف، وبسطوا القول فيه، وذكروا أدلة المانعين وأدلة المجيزين بنوع من التوسع،[٣٧] ولعل الراجح الجواز بشروط أهمهما:

- أن يكون التفسير جارياً على قوانين العربية، ومناحي العرب في أقوالهم، مع الموافقة للكتاب والسنة الصحيحة، وهذا ما ذهب إليه الذهبي في التفسير والمفسرون،[٣٨] ومنهم من أجازه لثبوت الأدلة على ذلك.[٣٩]

- أن يكون المفسر عالماً بما يقول، وتفسيره لا يخرج عن دائرة المعقول شرعاً، وقد علق الإمام ابن تيمية على الأقوال الواردة عن الصحابة والتابعين في النهي عن التفسير بالرأي بقوله: "فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه".[٤٠]

- امتلاك المفسر لأدوات الاجتهاد، أو بعضها، ومنها القدرة على إمعان النظر في النصوص لاستخراج دقائقها وكنوزها.

- أن يكون التفسير وفق قواعد ومقاصد الشريعة عموماً، ووفق مقاصد القرآن وكلياته التي جاء بها، وفي هذه الحالة لا يخرج التفسير عن دائرة فهم ما في الكتاب والسنة. روى

٣٧- انظر: الذهبي، **التفسير والمفسرون**، مرجع سابق، ج١، ص١٨٤- ١٨٨.

٣٨- انظر: الذهبي، **التفسير والمفسرون**، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٨-٢٢٩ .

٣٩- الرومي، فهد بن عبد الرحمن، **دراسات في علوم القرآن**، (الرياض: الطبعة السادسة عشر، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) ص١٧٥.

٤٠- ابن تيمية، أحمد عبد الحليم، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: أنور الباز- عامر الجزار، (دارالوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) ج١٣، ص٣٧٤.

البخاري عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: قلت لعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه: هل عندكم شئ من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال علي: لا. والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن...".[٤١]

أبرز جوانب النقد في اتجاه التفسير بالرأي:

تتمثل جوانب النقد في هذا الاتجاه في أمور، ولعل أبرزها النقد الموجه إلى الذين قيدوا العقل عن استنباط الفوائد، واستخراج الفرائد، وكذلك إلى رواد الاتجاه النقلي الذي حصروا التفسير على الروايات التفسيرية فقط، دون النظر والتفكر الذي دلت عليه نصوص القرآن.

ففي تفسير مفاتيح الغيب للرازي مثلاً نجده ينقد الملتزمين بالتفسير النقلي، والذين يغيبون عمل العقل عن الغوص في أسرار الآيات، فيقول: "اعلم أنه مَرَّ على لساني في بعض الأوقات، أن هذه السورة الكريمة - يريد الفاتحة - يمكن أن يُستنبَط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحُسَّاد، وقوم من أهل الجهل والغي والعناد، وحملوا ذلك ما ألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية المعاقد والمباني، فلما شرعتُ في تصنيف هذا الكتاب، قدَّمتُ هذه المقدمة، لتصير كالتنبيه على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول، قريب الوصول".[٤٢] والرازي هنا ينقد الاتجاه النقلي في التفسير، ويصف أصحاب ذلك التوجه بالجهل، والعناد، وبالرغم من المكانة التي حظي بها تفسير الرازي إلا أنه لم يسلم من النقد وجماع ما قيل عنه: "فيه كل شيء إلا التفسير".[٤٣]

٤١- انظر: محمد بن إسماعيل البخاري، **الجامع الصحيح المختصر**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، (بيروت: دار ابن كثير، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) **باب فكاك الأسير**، حديث رقم: ٢٨٨٢، ج٣، ص١١١٠.

٤٢- الذهبي، **التفسير والمفسرون**، مرجع سابق، ج٢، ٢٥٣.

٤٣- المرجع السابق، ج٢، ص٢٥٣.

وفي تفسير أنوار التنزيل للبيضاوي نجد أن منهجه تمثل في نقد الروايات الإسرائيلية والتقليل من شأنها فمثلاً عند التصدير للرواية بالإسرائيليات يقول: "روي أو قيل"، إشعاراً منه بضعفها.[٤٤]

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل:٢٢] يقول بعد فراغه في تفسيرها: "رُوى أنه عليه السلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج.. إلى آخر القصة التي يقف البيضاوي بعد روايتها موقف المجوِّز لها. غير القاطع بصحتها، حيث يقول ما نصه: "ولعله في عجائب قدرة الله وما خصّ به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك، يستكبرها مَن يعرفها، ويستنكرها مَن ينكرها".[٤٥]

ونجد الإمام البيضاوي كذلك يذكر منهجه الذي نهجه في آخر تفسيره، معبراً بلسان الناقد للتفاسير المطولة، أو المختصرة المخلة فيقول: "وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنطوي على فوائد ذوى الألباب. المشتمل على خلاصة أقوال أكابر الأئمة، وصفوة آراء أعلام الأُمة، في تفسير القرآن وتحقيق معانيه. والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات مبانيه، مع الإيجاز الخالى عن الإخلال، والتلخيص العاري عن الإضلال، الموسوم بأنوار التنزيل وأسرار التأويل".[٤٦]

النقد الموجه لأهل البدع في تفسير النسفي:

ونجد الإمام النسفي في تفسيره يذكر أن في تفسيره أقاويل أهل السنة، وأنه قد تحاشى أقاويل أهل البدعة فيقول: "قد سألني من تتعين إجابته، كتاباً وسطاً في التأويلات، جامعا لوجوه، الإعراب والقراءات، متضمناً لدقائق علمي البديع والإشارات، حالياً بأقاويل أهل السُّنَّة والجماعة، خالياً عن أباطيل أهل البدع والضلالة،

٤٤- المرجع السابق، ج٢، ص٢٥٦.

٤٥- الذهبي، **التفسير والمفسرون**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٥٦.

٤٦- المرجع السابق، ج٢، ص٢٥٧.

ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، وكنت أُقدِّم فيه رِجْلاً وأؤخر أخرى، استقصاراً لقوة البَشر عن درك هذا الوطر، وأخذاً لسبيل الحذر عن ركوب متن الخطر، حتى شرعتُ فيه بتوفيق الله والعوائق كثيرة، وأتممته فى مدة يسيرة، وسميته بمدارك التنزيل وحقائق التأويل".[٤٧] وهذا أسلوب نقدي يعتمد على التمحيص في النقل والاختيار.

ولقد تميز النسفي في نقده القوي للإسرائيليات، خاصة في مقام الأنبياء فكان لا يتركها كما فعل من سبقه من المفسرين فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُواْ عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَآ إِلَى سَوَآءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص:٢١-٢٢] .. نراه - بعد أن يذكر من الروايات ما لاَ يتنافى مع عصمة داود عليه السلام - يقول ما نصه: "وما يُحكى أنه بعث مرة بعد مرة أوريا إلى غزوة البلقاء وأحب أن يُقتل ليتزوجها - يعنى زوجه أوريا - فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أفناء الناس، فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء، وقال علي رضي الله عنه: مَن حدَّثكم بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص، جلدته مائة وستين، وهو حد الفرية على الأنبياء".[٤٨] وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص:٣٤] .. نراه يذكر من الروايات ما لا يتنافى مع عصمة سليمان عليه السلام، ثم يقول ما نصه: "وأما ما يُروى من حديث الخاتم والشيطان، وعبادة الوثن فى بيت سليمان عليه السلام، فمن أباطيل اليهود"،[٤٩] وبهذه الرؤية النقدية للإسرائيليات يتضح لنا مدى التميز النقدى لدى النسفي في مواجهة الروايات المكذوبة.

٤٧- المرجع السابق، ج٢، ص٢٦١.

٤٨- أبو البركات عبد الله النسفي، **تفسير النسفي**، تحقيق: مروان محمد الشعار، (بيروت: دار النفائس، ط١، ٢٠٠٥م) ج٤، ص٣١.

٤٩- المرجع السابق، ص٣٤.

النقد اللغوي في تفسير أبي حيان:

وفي البحر المحيط لأبي حيان نجد أنه جعل من منهجه الاهتمام باللغة إلى حدٍ كبير، وبالمقابل نقد الأقوال الباطنية في تفسيره فنجده يقول: "وربما ألممت بشئ من كلام الصوفية بما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ، وتجنبت كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التى يُحمِّلونها الألفاظ وتركتُ أقوال الملحدين الباطنية، المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها فى اللغة، إلى هذيان افتروه على الله، وعلى عليٍّ رضي الله عنه، وعلى ذُرِّيته، ويسمونه علم التأويل".[٥٠]

وهكذا يتضح لنا الاتجاه النقدي في التفسير بالرأي، وحدوده التي كانت تمثل نطاقاً لعمل النقد فيه، ونرى أنه أوسع دائرة في النقد من التفسير بالمأثور.

ثالثاً: الاتجاه النقدي في التفسير العلمي

يعرف الذهبي التفسير العلمي بأنه: "التفسير الذي يُحَكِّم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها".[٥١]

ويعرفه عدنان زرزور بأنه: "الاستناد إلى حقائق العلم التجريبي ونظرياته في شرح آيات الطبيعة والإنسان ـــ آدم وبنيه ـــ والتي وردت في القرآن الكريم في سياقات شتى، ومواضع متعددة".[٥٢]

ولو أنَّا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم، لوجدنا أن هذه النزعة – نزعة التفسير العلمى – تمتد من عهد النهضة العلمية العباسية إلى يومنا هذا، ولوجدنا أنها كانت البداية عبارة عن محاولات، قُصد منها التوفيق بين القرآن، وما جَدَّ من العلوم،

٥٠- المرجع السابق، ج٢، ص٢٧٣.

٥١- الذهبي، **التفسير والمفسرون**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٤٩.

٥٢- زرزور، عدنان محمد، **مدخل إلى تفسير القرآن الكريم وعلومه**، (دمشق: دار القلم، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م) ص٢٣١.

ثم وُجِدت الفكرة مركَّزة واضحة وصريحة على لسان الغزالى، وابن العربى، والمرسى، والسيوطى، ولوجدنا أيضاً أن هذه الفكرة قد طُبِّقت علمياً، وظهرت فى مثل محاولات الفخر الرازى، ضمن تفسيره للقرآن، وقد تفرد بإظهار هذا النوع طنطاوي جوهري في تفسيره: "الجواهر في تفسير القرآن".

والقرآن الكريم في نظر رواد مدرسة التفسير العلمي يشمل العلوم الدنيوية كلها إلى جانب اشتماله في الأصل على العلوم الدينية والعقائدية، يقول الإمام الغزالي في الإحياء: "القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم، إذ كل كلمة علم ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع"،[٥٣] ومن الأدلة التي يستدل بها رواد المدرسة العلمية كذلك، قول ابن مسعود رضي الله عنه: "مَن أراد علم الأوَّلين والآخرين فليتدَّبر القرآن".[٥٤]

بيدَ أن الغزالي في كتابه "جواهر القرآن" قد أبان تقسيماً يبين فيه كيف انشقت العلوم، ومنها علوم القرآن، وقد ذكر أنَّ علوم القرآن على قسمين: الأول: علم الصدف والقشر، وجعل من مشتملاته: علم اللُّغة، وعلم النحو، وعلم القراءات، وعلم مخارج الحروف، وعلم التفسير الظاهر، والثانى: علم اللُّباب، وجعل من مشتملاته: علم قصص الأوَّلين، وعلم الكلام، وعلم الفقه، وعلم أُصول الفقه، والعلم بالله واليوم الآخر، والعلم بالصراط المستقيم، وطريق السلوك.[٥٥]

وعلى هذا المنحى سارا الإمام جلال الدين السيوطي في القول في التفسير العلمي، حينما ذكر ذلك في كتابه الإتقان في النوع الخامس والستين منه.[٥٦] ونجد

٥٣- الغزالي، محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، (بيروت: دار المعرفة) ج١، ص٢٨٩.

٥٤- أخرجه الغزالي في الإحياء، **باب فهم القرآن وتفسيره**، المرجع السابق، ج١، ص٢٨٩.

٥٥- انظر: الغزالي، محمد بن محمد، **جواهر القرآن**، تحقيق: محمد رشيد رضا القباني، (بيروت: دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى، ١٩٨٥) ص٣٥-٤٣.

٥٦- انظر: السيوطي، جلال الدين، **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج٥، ص١٩٢٠-١٩٢٦.

كذلك مصطفى صادق الرافعي يؤيد هذه الاتجاه في التفسير حيث ينقل ما سمعه من مشائخه ومعلميه فيقول: "وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الإختراع، وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية".[٥٧]

وكما أن فكرة التفسير العلمي قد لاقت رواجاً عند المتقدمين والمتأخرين، إلا أنها لم تسلم من الإنكار كذلك من المتقدمين والمتأخرين، ففي الموافقات للشاطبي نجد أنه قد أنكر على من أضافوا للعلوم العربية ما ليس منها وذلك أثناء كلامه في مقاصد وضع الشريعة للإفهام حيث يقول: "ما تقرر من أُمِّية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها – وهم العرب – ينبني عليه قواعد منها: أنَّ كثيراً من النَّاس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يُذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم كالهندسة وغيرها من الرياضيات، والمنطق وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح"،[٥٨] وقد رجح الذهبي قول الشاطبي لقوة الأدلة، وأضاف عليها بعض الأمور التي تخل من قوة التفسير العلمي وهي عدم مطابقة التفسير العلمي للمناحي اللغوية والبلاغية والاعتقادية.[٥٩]

ومن المتأخرين نجد العلامة محمود شلتوت ينقد أصحاب الاتجاه العلمي في التفسير فيقول: "فإن طائفة أخرى هي طائفة المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث، وتلقنوا أو تلقفوا شيئا من النظريات العلمية والفلسفية والصحية وغيرها، أخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها" ويتابع نقده نحو رواد مدرسة التفسير العلمي: "نظروا في القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فتأولوها على نحو زيّن لهم أن يفتحوا

٥٧- الرافعي، مصطفى صادق، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م) ص٩٠.

٥٨- الشاطبي، إبراهيم بن موسى، **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، (دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م) ج٤، ص٣٩٠.

٥٩- الذهبي، **التفسير والمفسرون**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٥٩-٣٦١.

في القرآن فتحا جديداً، ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن، ويرفعون من شأن الإسلام، ويدعون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية.[٦٠]

أبرز جوانب النقد في التفسير العلمي:

الناظر في تفسير "الجواهر في تفسير القرآن الكريم" لطنطاوي جوهري،[٦١] باعتباره المبلور لفكرة الاتجاه العلمي في التفسير؛ يجد أن أبرز جوانب النقد تمثلت في الهجوم على الاتجاه الفقهي في التفسير، وكذلك نقده الذين يقبلون على تعلم العلوم الأخرى، ولا يقبلون على التفسير العلمي للقرآن والنظر لما في الكون من الأسرار والآيات الكونية، وكذلك نجده ينقد نظام التعليم في العالم الإسلامي، وسوف نتناول هذه الجوانب بالأمثلة والإيضاح.

الهجوم المباشر على الاتجاه الفقهي في التفسير:

لعل النزعة التي تبناها طنطاوي جوهري تعتبر امتداداً للنزعة النقدية التي قال بها الغزالي، فمن المعلوم أن الغزالي كان من المؤيدين لفكرة التجديد في التفسير، فلقد اعترض رحمه الله على طريقة المتقدمين في تفسيرهم للقرآن، حين توسعوا في استنباط الأحكام الفقهية دون المعاني والحكم والمقاصد منها، فقال: "هناك التفسير الفقهي للقرآن، وهو تفسير طوع الآيات لأحكام الفقهاء وطريقتهم في الاستنباط، ولم يهتم إلا

٦٠- انظر آراء العلماء المعاصرين ومنهم الشيخ محمود شلتوت: الرومي، فهد بن عبد الرحمن، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ) ج٢، ص٥٦٤-٥٧٧.

٦١- يعتبر طنطاوي جوهري أول من بلور هذا التوجه في التفسير وذلك من خلال تأليفه لتفسير الجواهر، الذي أودع فيه كثير من النظريات العلمية والحقائق التي تدعم توجهه العلمي، وهو أزهري ولد سنة ١٨٥٩م وتوفي سنة ١٩٤٠م، قام بالتدريس في مدرسة دار العلوم بالقاهرة وقد اهتم وكتب عدة مقالات في مجال ما سماه بالعجائب الكونية.

بآيات الأحكام التشريعية، واقتصر في ذلك على الحكم الشرعي، دون النظر إلى المقاصد الأخرى، وهذا فيه شيء يستدعي الاستدراك".[٦٢]

غير أن طنطاوي جوهري قد وسع من دائرة النقد للاتجاه الفقهي، فنجده يوجه نقداً مباشراً لأصحاب التوجه الفقهي في التفسير، وللفقهاء عموماً، حيث يقول: "لماذا أَلَّف علماء الإسلام عشرات الأُلوف من الكتب الإسلامية في علم الفقه ... وعلم الفقه ليس له في القرآن إلا آيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آية؟ فلماذا كثُرَ التأليف في علم الفقه، وقَلَّ جداً في علوم الكائنات التي لا تخلو منها سورة؟ بل هي تبلغ سبعمائة وخمسين آية صريحة، وهناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة. فهل يجوز في عقل أو شرع أن يبرع المسلمون في علم آياته قليلة. ويجهلوا علماً آياته كثيرة جداً؟ إن آباءنا برعوا في الفقه، فلنبرع نحن الآن في علم الكائنات .. لنقم به لترقي الأُمة".[٦٣]

إن هذا النظرة النقدية اللاذعة ربما قد أسهمت بشكر كبير في عزوف كثير من المثقفين عن قراءة هذا النوع من التفسير، ومما يزيد الطين بلة، ويجذر لمسألة النقد المباشر لهؤلاء وصفه للفقهاء بالمغرورين، فنجده يقول: "يا أمة الإسلام؛ آيات معدودات في الفرائض اجتذبت فرعاً من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها .. هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور نور الإسلام، هذا زمان رقيه، يا ليت شعري .. لماذا لا نعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في آيات الميراث؟ ولكني أقول: الحمد لله ... الحمد لله، إنك تقرأ في هذا التفسير خلاصات من العلوم، ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض، لأنه فرض كفاية، فأما هذه فإنها للازدياد في معرفة الله وهي فرض عَيْن على كل قادر ... إن هذه العلوم التي أدخلناها في

٦٢- الغزالي، محمد، **كيف نتعامل مع القرآن**، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م) ص٤٠.

٦٣- جوهري، طنطاوي، **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م) ج٢٥،ص٥٣.

تفسير القرآن، هي التي أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام، فهذا زمان الانقلاب، وظهور الحقائق، والله يهدى مَن يشاء إلى صراط مستقيم".[٦٤]

النقد الموجه للدارسين للعلوم الأخرى، والتعليم الإسلامي:

لم تقتصر النظرة النقدية التي تبناها طنطاوي جوهري نحو الاتجاه الفقهي فحسب، بل تعدت لتشمل أيضاً بعض العلوم الأخرى كعلم البلاغة والبيان وغيرهما، ولا أدل على ذلك من كتاباته واستشهاداته إزاء التوجه البلاغي في تفسير القرآن الكريم، حيث يوجه في معرض حديثه حول حتمية تغيير نظام التعليم في العالم الإسلامي، ويتعرض لنقد علوم البلاغة فيقول: "إن نظام التعليم الإسلامي لا بد من ارتقائه، فعلوم البلاغة ليست هي نهاية علوم القرآن، بل هي علوم لفظه، وما نكتبه اليوم علوم معناه، وانطباقها على العلوم التي أظهرها الله في الأرض، ولعل هذا الزمان سيظهر فيه آثار من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٩]، فإن البيان المذكور في سورة القيامة فُسِّر بمعنى أننا نبينه بلسانك فتقرأه كما أقرأك جبريل، وبمعنى أنه إذا أشكل شيء من معانيه فنحن نبينه لك، وعلينا بيان ما فيه من الأحكام والعجائب ولا جَرَم أن ما يتجدد اليوم من العلوم مما ذُكِر في هذا التفسير وما لم يُذكر، من البيان الذي أكد الله أنه يُظهره لأُمة الإسلام، فالحمد لله الذي وفق في هذا التفسير لبعض العرفان تصديقاً لما ذكر الله من أن عليه البيان".[٦٥]

وهكذا نظر رواد مدرسة التفسير العلمي لغيرهم من الاتجاهات الأخرى في التفسير، مع أن من العيوب التي تؤخذ على رواد مدرسة التفسير العلمي إعمال النظريات العلمية المتغيرة في التفسير، والاستشهادات بما جاء في الأناجيل كأنجيل (برنابا)، وشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون في جمهوريته، أو بما جاء عن

٦٤- المرجع السابق، ج٣، ص١٩.

٦٥- المرجع السابق، ج٢٥، ص٤٠.

إخوان الصفا في رسائلهم.[٦٦] وبهذه النظرة النقدية للآخر عزف الكثيرون عن الاستغراق والنظر لما يكتبه ويمليه رواد مدرسة التفسير العلمي، ولم تلق كتبهم ذلك الرواج والزخم من قبل المثقفين.

المبحث الثالث: الاتجاه النقدي في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور:

يتناول هذا المبحث التعريف بالمنهجية النقدية لدى ابن عاشور، والتي اتسمت بالعمق النقدي والنظرة الثاقبة، ثم إبراز جوانب الاتجاه النقدي في تفسيره، وأما مسألة التعريف بابن عاشور فلم نتعرض لها لشهرة ابن عاشور وبروز شخصيته عند الأكثرين.

أولاً: المنهجية النقدية لدى ابن عاشور في تفسيره.

يستطيع القارئ في تفسير الشيخ ابن عاشور أن يلحظ منهج الشيخ ابن عاشور والخطوات التي اتّبعها في تفسيره بوضوح وسهولة، فقد قدم ابن عاشور لتفسيره بمقدمات عشر ذات صلة بالتفسير وعلوم القرآن، أوضح من خلالها معظم منهجه والمصادر التي اعتمد عليها في تفسيره، وقد تحددت رؤيته النقدية من خلال هذه المقدمات، وفيما يأتي عرض مختصر لها:

المقدمة الأولى: في التفسير والتأويل وكون التفسير علماً وفيها نقد تعاريف التفسير والحق الذي ينبغي أن يشتمل عليه علم التفسير،[٦٧] وبين رحمه الله أن حق علم التفسير أن يشتمل على بيان أصول التشريع وكلياته.[٦٨]

المقدمة الثانية: في استمداد علم التفسير وفيها أبان أهم مصادر علم التفسير ونقد ما عداها.[٦٩]

٦٦- انظر: الذهبي، التفسير والمفسرون، مرجع سابق، ج٢، ٤٤٥.

٦٧- محمد الطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، الطبعة التونسية، ١٩٩٧م) ج١، ص١١.

٦٨- المرجع السابق، ج١، ص١٣.

المقدمة الثالثة: في صحة التفسير بغير المأثور، ومعنى التفسير بالرأي، وفيها انتقد القول بعدم صحة التفسير بالرأي ووضع قواعد الجواز مرجحاً القول بأفضلية التدبر مع قلة القراءة.[٧٠]

المقدمة الرابعة: فيما يحق أن يكون غرض المفسر وفيها أبان وجوب علم المفسر المقاصد الأصيلة التي جاء بها القرآن الكريم وهي: إصلاح الاعتقاد، وتهذيب الأخلاق، التشريع وهو الأحكام عامة وخاصة، وسياسة الأمة وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة، القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، والتعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، والمواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وأخيراً الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول.[٧١]

المقدمة الخامسة: أسباب النزول أوضح ابن عاشور في هذه المقدمة أهمية أسباب النزول في علم التفسير، وبالمقابل انتقد الذين اعتقدوا الخطأ في أسباب النزول، المكثرين من البحث عن أسباب النزول الذين قالوا أن لكل آية من القرآن سبب نزول.[٧٢]

المقدمة السادسة: في القراءات وفيها فصل بين جوانب اتصال القراءات بالتفسير وجوانب انفصالها عنه برؤية نقدية بارعة.[٧٣]

المقدمة السابعة: قصص القرآن وفيها ذكر مميزات القصص القرآني بأسلوب رائع، مبيناً أهميتها للمفسر.[٧٤]

٦٩- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١، ص١٨.

٧٠- المرجع السابق، ج١، ص٢٩.

٧١- للاستزادة حول الإعجاز القرآني انظر: الأطرش، رضوان جمال، **رسالة في الإعجاز القرآني**، (كوالالمبور: الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م).

٧٢- انظر: المرجع السابق، ج١، ص٤٦-٤٧.

٧٣- المرجع السابق، ج١، ص٥٥.

٧٤- المرجع السابق، ج١، ص٦٤-٦٥.

المقدمة الثامنة: ما يتعلق باسم القرآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها، وفيها يفصل بمسائل الترتيب للآيات والسورة وأحكام ذلك بأسلوب ناقد ومبصر.[٧٥]

المقدمة التاسعة: في أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن مرادة بها، وفيها يشرح حمل المعاني القرآنية على كمالها وجمالها الذي أودع فيها.[٧٦]

المقدمة العاشرة: في إعجاز القرآن ويتناول ابن عاشور في هذه المقدمة خصائص الإعجاز القرآني.[٧٧]

ثانياً: الاتجاه النقدي في تفسير التحرير والتنوير (المستوى التنظيري)

لقد تمثلت جوانب النقد في تفسير التحرير والتنوير في جوانب عديدة أهمها:

النزعة النقدية في منهجه منذ اللحظة الأولى: حيث يوضح لنا ذلك فيقول: "فأقدم على هذا المهم إقدام الشجاع على وادي السباع".[٧٨]

التزامه بالجديد في التفسير: ويظهر ذلك جلياً في المقدمة التي يذكر فيها هذا المنهج حيث يقول: "فجعلت حقاً أن أبدي في تفسير القرآن الكريم نكتاً لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين لها تارة لها وآونة عليها، فإن الاقتصار على الحديث المعاد تعطيل لفيض القرآن الذي ما له من نفاد".[٧٩]

تصنيفه للناس حول كلام الأقدمين: ويتضح ذلك من خلال كلامه وتعليقه على أحوال الناس في عصره وطرق أخذهم من الأولين حيث يقول: "ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين: رجل معتكف فيما شاده الأقدمون، وآخر آخذ بمعوله

٧٥- المرجع السابق، ج١، ص٧١.

٧٦- المرجع السابق، ج١، ص٩٩.

٧٧- وقد ذكر الإمام الباقلاني في كتابه دلائل الإعجاز تفصيلاً لتلك الوجوه، (انظر: الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، **دلائل الإعجاز**، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة: دائرة المعارف، د.ط) ص١٦-٣٣.

٧٨- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١، ص٦.

٧٩- المرجع السابق، ج١، ص٧.

فيهدم ما مضت عليه القرون، وفي كلتا الحالتين ضر كثير، وهناك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير، وهي أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذبه ونزيده، وحاشا أن ننقضه أو نبيده، علماً بأن غمط فضلهم كفران للنعمة، وجحد مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأمة".[٨٠]

يرى ابن عاشور أن من أسباب تأخر علم التفسير هو الولع بالتوقيف والنقل، اتقاء الغلط الذي عظموه في شأن القرآن، مما نتج عنه أن الناس أصبحوا يغترفون في التفسير النقل ولو كان ضعيفاً أو كاذباً، ويتقون الرأي ولو كان صحيحاً صائباً لأنهم توهموا أن ما خالف النقل عن السابقين إخراج للقرآن عما أراد الله به، ومن هذا المنطلق نجد أن ابن عاشور ينقد ذلك الفعل فيقول: "فالتفاسير وإن كانت كثيرة فإنك لا تجد منها إلا عالة على كلام سابق لا حظ له لمؤلفه إلا الجمع على تفاوت بين اختصار وتطويل".[٨١]

النظرة الجزئية النَّقلية تقييد لفهم القرآن:

يرى ابن عاشور أن النظرة الجزئية، والنقلية السابقة تعتبر تقييداً لفهم القرآن الكريم، وتضييقاً لمعناه الواسع الدلالة ولذا نرى ابن عاشور يوجه نقده لتلك النظرة الجزئية فيقول: "فقد أصبحت تلك النظرة .... تسجيلاً يقيد به فهم القرآن، ويضيق به معناه الذي كان يقولون فيه "لا تنقضي عجائبه ولا تنفد معانيه" بأسباب جرت إلى هذا التضييق".[٨٢]

أكبر دليل على الرؤية النقدية التجديدية المتجذرة عند ابن عاشور تسمية تفسيره بهذا العنوان: تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد.

٨٠- المرجع السابق، ج١، ص٧.

٨١- المرجع السابق، ج١، ص٧.

٨٢- ابن عاشور، محمد الطاهر، **أليس الصبح بقريب**، (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) ص١٦١.

الذي اختصره ليصبح "التحرير والتنوير من التفسير".[٨٣] وغير ذلك من الرؤى النقدية التي تحلى بها تفسير ابن عاشور.

نقده للتفاسير السابقة وإظهار الجديد في تفسيره: وهو في هذا الميدان ينقد التفاسير التي لم تف بالغرض المطلوب خاصة في باب إظهار بلاغة القرآن الكريم، فيقول: " فن دقائق البلاغة هو الذي لم يخصه أحد من المفسرين بكتاب كما خصوا الأفانين الأخرى، من أجل ذلك التزمت أن لا أغفل التنبيه على ما يلوح لي من هذا الفن العظيم في آية من آي القرآن كلما ألهمته بحسب مبلغ الفهم وطاقة التدبر. وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال"[٨٤] ثم يتابع ابن عاشور التزامه بالتمييز مع على سبقه من المفسرين ونقده لطريقة بعضهم في البحث عن وجوه للتناسب بين السور فيقول: "واهتممت أيضا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو مترع جليل قد عني به فخر الدين الرازي، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى: نظم الدرر في تناسب الآي والسور إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع، أما البحث عن تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض، فلا أراه حقا على المفسر".[٨٥]

يرى ابن عاشور أن من أسباب تأخر علم التفسير[٨٦] الولع بالتوقيف والنقل اتقاء الغلط الذي عظموه في القرآن حتى قال: "خطؤه كفر" فأصبح الناس يغتفرون النقل فيه ولو كان ضعيفاً أو كاذباً، ويتقون الرأي ولو كان صواباً حقيقياً.[٨٧]

٨٣- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١، ص٨.

-٨٤ المرجع السابق، ج١، ص٨.

٨٥- المرجع السابق، ج١، ص٨.

٨٦- ومن الأسباب التي ذكرها ابن عاشور كذلك: **ضعف اللغة والبلاغة، الضعف في علوم يظنونها بعيدة عن القرآن**، وهي ضرورية لمعرفة عظمته العمرانية، مثل التاريخ وفلسفة العمران، والأديان، والسياسة، وكذلك من الأسباب **خروج بعض التفاسير عن العلوم التي لها تعلق بفهم الآية** كما فعل الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب.

٨٧- ابن عاشور، **أليس الصبح بقريب**، مرجع سابق، ص١٦١.

وهكذا تتضح لنا رؤية ابن عاشور النقدية للتفاسير وأساليب المفسرين على المستوى التنظيري، وفيما يأتي نتعرف على رؤية ابن عاشور النقدية على المستوى التطبيقي.

الاتجاه النقدي في تفسير ابن عاشور (المستوى التطبيقي)

وكما أن المستوى التنظيري النَّقدي عند ابن عاشور بدا واضحاً في معالم تفسيره، فكذلك المستوى التطبيقي النقدي ظهر جلياً بين ثنايا تفسيره، لقد تمثل ذلك في ترجيحه بين الروايات المختلفة، وإبداء رأيه في مسائل الأحكام وفقاً لقواعد المقاصد التي سلك بيانها في مواضع كثيرة من تفسيره. وغير ذلك من الجوانب النقدية.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أنه يعتمد في الفقه والأحكام على المذهب المالكي بصورة رئيسة مع تعرضه للمذاهب الفقهية الأخرى، وكذلك لأقوال الصحابة والتابعين، وهو في كل ذلك يحقق تلك الأقوال ويرجحها ويقارن دون أن يتحجر باتباع معين أو اتجاه محدد، بل يسير مع أي رأي يتفق ومنهجه التشريعي، ورؤيته المقاصدية، وإن لاحظنا عليه غلبة واضحة للمذهب المالكي باعتباره منبع هذه الرؤية ومؤصلها.[٨٨]

فما جاء في تفسير ابن عاشور في ترجيحه بين الروايات، ترجيحه لما رواه مالك في الموطأ عند الحديث حول صلاة الخوف حيث يقول ابن عاشور: "وذهب جمهور العلماء إلى أن الإمام يصلي بكل طائفة ركعة، وإنما اختلفوا في كيفية تقسيم الصلاة: بالنسبة للمأمومين، **والقول الفصل في ذلك** هو ما رواه مالك في الموطأ، عن سهل بن أبي حثمة: إنه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف يوم ذات الرقاع، فصفت طائفة معه وطائفة وجاه العدو، فصلى بالذين معه ركعة ثم قام، وأتموا ركعة لأنفسهم، ثم انصرفوا فوقفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى

٨٨- انظر: واسي، صالح، **منهج الإمام محمد الطاهر ابن عاشور الاجتهادي**، (مجلة الهداية، العدد السادس والعشرون، السنة الثالثة والعشرون ١٩٩٩م) ص٤٣-٥٢.

بهم الركعة التي بقيت له، ثم سلم، ثم قضوا الركعة التي فاتتهم وسلموا وهذه الصفة أوفق بلفظ الآية، والروايات غير هذه كثيرة.

والطائفة: الجماعة من الناس ذات الكثرة. **والحق أنها لا تطلق على الواحد والاثنين**، وإن قال بذلك بعض المفسرين من السلف، وقد تزيد على الألف كما في قوله تعالى: ﴿عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعام:١٥٦]، وأصلها منقولة من طائفة الشيء وهي الجزء منه".[٨٩]

ومما ورد في تفسير ابن عاشور نزعته المقاصدية الممزوجة بالتوجه النقدي في التفسير حيث التزم بهذه الوجهة في مواضع كثيرة العدد، فمن ذلك كلامه حول الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٥٤] حيث يتحدث بنظرة مقاصدية نقدية حول هذه الآية فيقول: " تشريع حكم لا يكون مثله إلا عن وحي لا عن اجتهاد وإن جاز الاجتهاد للأنبياء فإن هذا حكم مخالف لقاعدة حفظ النفوس التي قيل قد اتفق عليها شرائع الله فهو يدل على أنه كلفهم بقتل أنفسهم قتلا حقيقة إما بأن يقتل كل من عبد العجل نفسه فيكون المراد بالأنفس الأرواح التي في الأجسام فالفاعل والمفعول واحد على هذا وإنما اختلفا بالاعتبار".[٩٠]

وهناك العديد من الأمثلة التي تؤيد ما ذكر من الجوانب النقدية التي التزم بها ابن عاشور فأضفت على تفسيره قالباً خاصاً، ومظهراً زاهياً يستلذ القراء من خلاله، بما في القرآن من المقاصد والدرر.

٨٩- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٥، ص١٨٦.

٩٠- المرجع السابق، ج١، ص٥٠٣.

ومع وجود التباين بين الاتجاه الهدائي[٩١] بزعامة رشيد رضا والأفغاني، والاتجاه التجديدي المقاصدي[٩٢] بزعامة ابن عاشور، إلا أن كلا الاتجاهان[٩٣] يتفقان في أن للقرآن مقاصد جليلة لها دور في حياة المسلمين وحل مشاكلهم الواقعية.[٩٤]

وبهذا نستطيع القول بأن النظرة النقدية التي تحلى بها ابن عاشور قد أضفت إلى جمال تفسيره جمالاً علمياً كبيراً جعل من تفسيره موسوعة عليمة حوت مختلف العلوم والمعارف، وأشارت إلى سعة علمه وأصالة فكره وثقافته.

أهم النتائج

ولقد توصل الباحث إلى النتائج الآتية:

١- إن مفهوم الاتجاه النقدي في التفسير يتلخص بأنه: مجموعة الآراء أو الأفكار أو الاختيارات التي يذهب إليها أصحاب اتجاه تفسيري معين، بناء على أسس معينة وقواعد تحكم توجههم التفسيري، يعارضون أو يتفقون مع غيرهم، مع محاولة إبداء الأسباب المقنعة لذلك.

٩١- يرى رواد الاتجاه الهدائي في التفسير أن المقصد الأعلى من القرآن الكريم هو هداية الناس، وإرشادهم لما فيه سعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة، وأن ما وراء هذا المقصد يعتبر تابع له.

٩٢- يرى رواد الاتجاه التجديدي المقاصدي أن بيان المقاصد القرآنية وتجليتها يتم من خلال توظيف مختلف الأساليب والوسائل والعلوم (من لغة وبلاغة، وأصول فقه، وعمران واجتماع، وسياسة) في الكشف عن مختلف مستويات المقاصد وأنواعها.

٩٣ للاطلاع على الفرق بين مفهوم المقاصد عند الاتجاهين: (انظر: حامدي، عبد الكريم، **مقاصد القرآن من تشريع الأحكام**، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م) ص٣٥-٥١.

٩٤- رشواني، سامر، **الاتجاه المقاصدي في تفسير ابن عاشور**، (مجلة إسلامية المعرفة، العدد الثالث والعشرون، السنة السادسة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م) ص١٠٦.

٢- إن أبرز الجوانب النقدية التفسيرية التي سلكها رواد مدرسة التفسير بالمأثور تتخلص في الترجيح بين الروايات ورد الأقوال الضعيفة، وبيان أوجه القراءات، والترجيح في الأوجه اللغوية، والإنكار على التفسير بمجرد الرأي، وقد دللنا على ذلك من الأمثلة ما يغني عن إعادته هنا.

٣- إن أبرز الجوانب النقدية التفسيرية التي سلكها رواد مدرسة التفسير بالرأي النقد الموجه إلى الذين قيدوا العقل عن استنباط الفوائد، واستخراج الفرائد، وكذلك إلى رواد الاتجاه النقلي الذي حصروا التفسير على الروايات التفسيرية فقط، دون النظر والتفكر والتأمل الذي تدل عليه نصوص الكتاب الكريم.

٤- إن أبرز الجوانب النقدية التفسيرية التي سلكها رواد مدرسة التفسير العلمي تمثلت في الهجوم على الاتجاه الفقهي في التفسير، وكذلك نقد الذين يقبلون على تعلم العلوم الأخرى ولا يقبلون على التفسير العلمي للقرآن والنظر لما في الكون من الأسرار والآيات الكونية، وكذلك نقد نظام التعليم في العالم الإسلامي، كما يعبر عن ذلك طنطاوي جوهري في تفسير الجواهر في تفسير القرآن الكريم.

٥- يعد ابن عاشور من رواد المدرسة الحديثة في التفسير وقد حاول عبر مسيرته العلمية الطويلة، ورؤيته المقاصدية النقدية أن يواكب الواقع من خلال آرائه التجديدة والإصلاحية في تفسيره التحرير والتنوير، ومن خلال مؤلفاته الأخرى.

٦- إن أبرز الجوانب النقدية التفسيرية في تفسير التحرير والتنوير من الجانب التنظيري التزام ابن عاشور بالجديد في التفسير حيث ذكر أنه سيأتي بنكت لم ير من سبقه إليها، وكذلك تصنيفه للناس حول التفاسير القديمة، ونقده للنظرة النقلية الجزئية في التفسير.

٧- إن أبرز الجوانب النقدية التفسيرية في تفسير التحرير والتنوير من الجانب التطبيقي تمثلت في ترجيحه بين الروايات المختلفة، وإبداء رأيه في مسائل الأحكام وفقاً لقواعد المقاصد التي سلك بيانها في مواضع كثيرة من تفسيره.

المصادر والمراجع

- الأطرش، رضوان جمال، **رسالة في الإعجاز القرآني**، كوالالمبور: الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، **دلائل الإعجاز**، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة: دائرة المعارف، د.ط.

- البخاري، محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح المختصر**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد عبد الحليم، **مقدمة التفسير**، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، السعودية: الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

- ابن تيمية، أحمد عبد الحليم، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: أنور الباز- عامر الجزار، دارالوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

- الخالدي، صلاح عبدالفتاح، **تعريف الدارسين بمناهج المفسرين**، دمشق: دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤٢٩-٢٠٠٨م.

- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، **لسان العرب**، بيروت: دار صادر – الطبعة الأولى.

- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، الطبعة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

- شريف، محمد إبراهيم، **اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم**، القاهرة: دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م.

- الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر، **مختار الصحاح**، تحقيق: محمود خاطر، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، د.ط، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

- الرومي، فهد بن عبد الرحمن، **دراسات في علوم القرآن**، الرياض: الطبعة السادسة عشر، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

- الرومي، فهد بن عبد الرحمن، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

- جروان، حسن، **تعليم التفكير**، د.ط، د.ت.

- الأصفهاني، الراغب، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، لبنان: دار المعرفة.

- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار المعرفة، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

- الزرقاني، محمد عبد العظيم، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة.

- ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.

- القطان، مناع، **مباحث في علوم القرآن**، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

- الذهبي، محمد حسين، **التفسير والمفسرون**، القاهرة: مكتبة وهبة، الطبعة السابعة، ٢٠٠٠م.

- الطبري، ابن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

- زرزور، عدنان محمد، **مدخل إلى تفسير القرآن الكريم وعلومه**، دمشق: دار القلم، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

- الغزالي، محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، بيروت: دار المعرفة.

- الغزالي، محمد بن محمد، **جواهر القرآن**، تحقيق: محمد رشيد رضا القباني، بيروت: دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.

- الرافعي، مصطفى صادق، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.

- الشاطبي، إبراهيم بن موسى، **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

- جعفر، عبد الغفور محمود، **التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد**، القاهرة: دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

- الغزالي، محمد، **كيف نتعامل مع القرآن**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

- جوهري، طنطاوي، **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.

- العلي، هيا ثامر مفتاح، **الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير**، الدوحة: دار الثقافة، د.ط، ١٩٩٤م.

- ابن الخوجة، محمد الحبيب، **مجلة الهداية**، العدد ٣-٤، ص١١.

- ابن عاشور، عبد الملك، **مهرجان ابن عاشور**، ١٩٨٤م، ص٣.

- ابن عاشور، محمد الطاهر، أليس الصبح بقريب، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

- واسي، صالح، **منهج الإمام محمد الطاهر ابن عاشور الاجتهادي**، مجلة الهداية، العدد السادس والعشرون، السنة الثالثة والعشرون ١٩٩٩م.

- حامدي، عبد الكريم، **مقاصد القرآن من تشريع الأحكام**، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

- رشواني، سامر، **الاتجاه المقاصدي في تفسير ابن عاشور**، مجلة إسلامية المعرفة، العدد الثالث والعشرون، السنة السادسة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م ص١٠٦.